الاستعداد لمعركة وادي المخازن من الطرفين

بقلم الاستاذ محمد الفاسي

كان البرتغال في القرن السادس عشر من أعظم دول العالم بما استولى عليه بفضل قوته البحرية من البلاد في القارات الثلاث : أمريكا وافريقيا وآسيا. وكان أهم ما يصبو إليه ملوكه احتلال المغرب لأنهم كانوا يعتبرون أن العدو الأول الذي يجب القضاء عليه هو الاسلام وأن الباب إلى الاستيلاء على البلاد الاسلامية هو المغرب.

وكان على رأس الدولة البرتغالية في هذا العصر ملك شاب مشبع بروح العداء الإسلامي، وكان يعتبر نفسه فارسا مغوارا شجاعا وأنه في مقدوره أن يحقق ما كان يصبو إليه آباؤه من تخليص قبر المسيح على زعمهم من الهيمنة الإسلامية، وأنه لا يمكنه ذلك من جهة البحر لأسباب كثيرة وأن احتلال المغرب ثم باقي شمال افريقيا إلى البحر الأحمر هو الطريق الوحيد لتحقيق أحلامه. ثم إنه كان يرى أن مما يسهل عليه تنفيذ هذه الخطة احتلاله لكثير من أقاليم المغرب خصوصا في الشمال. وقد كان بويع هذا الملك وهو دون سبستيان وهو ابن أربع عشرة سنة (1564م). ولما بلغ العشرين استحوذت عليه فكرة الهجوم على المغرب واحتلال عاصمته فاس وتركيز العلم البرتغالي فوق مئذنة جامع القرويين. وبقي يفكر في هذا المشروع بضع سنين، وفي أحد الأيام من سنة 1574 قرر أن يذهب بنفسه لاستطلاع أحوال الناحية المحتلة من البلاد المغربية في الشمال ومحاولة خوض بعض المعارك مع المغاربة ليرى بنفسه كيف تكون الحرب. فتوجه في مراكب قليلة ومعه نحو الألفين من الجنود، ونزل بسبتة يوم 21 غشت حيث قضى ثلاثة أشهر كان يخرج أثناءها للاقاة من يجده من المغاربة في حراسة الثغور، وكانت سنه إذذاك أربعا وعشرين سنة. ورجع وهو مؤمن أن أمر الاستيلاء على المغرب سهل ميسر لمن كانت له قوته واستعداده. وتقول لنا المصادر المسيحية أنه لاقى في ما يعتزمه من هذه الحملة معارضة من مستشاريه ورجال دولته الذين كانوا يرون أن المغرب بعد مبايعة مولاي عبد الملك قد استرجع الأمن والقوة وأن الأتراك لا شك سيساعدونه إذا هجم عليه النصارى إلى نحو هذا من المثبطات عن اقتحام هذه المصاعب والمخاطرة بأشراف البرتغال وأعيانه في حرب لا شيء يضمن لهم النصر فيها، وأنا أرى أنه إن كانت لنا وثائق جدية صحيحة يصرح فيها بمثل هذه الأفكار، فإنها كلها ترجع إلى الأيام القليلة التي سبقت المعركة حيث تحقق العقلاء من حاشية دون سبستيان بأن الأمر على خلاف ما كانوا يعتقدون، وهذه المعلومات توجد في الرسائل التي كان يبعثها من المعسكر

النبيل دون خوان دي سيلبا إلى ملك اسبانيا فيليب الثاني وقد كان عينه على الملك البرتغالي، وقد نشرت في المجموعة الكبرى لمصادر تاريخ المغرب التي كانت تشرف على إصدارها جامعة محمد الخامس بواسطة القسم التاريخي التابع للخزانة العامة وهي مجموعة ثمينة تحتوي على ستة وعشرين مجلدا ضخما. أما الرأي العام بالبرتغال قبل الخروج إلى الحملة فقد كان متحمسا لهذه الحرب الصليبية مومنا بالنصر. قال المؤرخ الفرنسي كاستوني دي فوس وكان يكتب منذ اثنتين وتسعين سنة في بحث له عن البرتغاليين في المغرب : «كان رجال القصر في الاشبونة يعتبرون هذه الحرب كأنها تقريبا سياحة عسكرية وكانوا يتبجحون بتعليق الصلبان قريبا على مساجد فاس ومراكش. وكثير من نساء الطبقة العليا أبدين الرغبة في التوجه مع الحملة كأنهن سيحضرن في مسابقة الفرسان في مهرجان الخيالة. والشاعر كاموانس كان يستعد وهو ينازع الموت للتغني ببطولة هؤلاء الصليبيين الجدد الذين باركهم البابا»(1). ويقول مصدر آخر : «كنت تشاهدُ رجال البوادي يشترون الحبال ليقيدوا بها أسراهم والأشراف يبيعون أراضيهم ليشتروا بها الدروع والسروج الجميلة»(2). فالروايات التي تؤيد وجهة النظر القائلة بأن فكرة الصليبية كان لا يؤمن بها إلا الملك تريد أن تبرر الهزيمة بأنها لا ترجع إلى ضعف البرتغاليين ولا إلى قلة شجاعتهم وإنما هي راجعة لتدهور الملك وعدم الجدية في تهييء الحملة التهييء المناسب للغاية العظيمة التي كانت تراد منها. نعم قد كان لاشك كثير من العقلاء ذوي الخبرة بالشؤون العسكرية وبالسياسة العامة والذين كان لهم اطلاع كبير على أحوال المغرب يعارضون هذا المشروع الأهوج ويعتبرونه محكوما عليه بالفشل الذريع، إلا أن هؤلاء كان عددهم قليلا وكلمتهم غير مسموعة. فلما وقعت الواقعة أخذت أقلام الكاتبين والمؤرخين من البرتغاليين بإجماع تحاول محو العار الشنيع الذي حصل بهذه الهزيمة للامة البرتغالية.

ومهما يكن من أمر فإن الحادث الذي شجع نهائيا الملك دون سبستيان على اقتحام هذه المخاطر أو قل الحجة التي استند عليها أمام رأي المعارضين إن كان هناك معارضون يستطيعون أن يقفوا في وجه رغبته فهو الخيانة العظمى التي تلطخ بها محمد المسلوخ. وذلك أنه بعدما هزمه عمه الملك مولاي عبد الملك التجأ إلى بادس عند الإسبان وأقام بها مدة ثم توجه أولا عند ملك إسبانيا فليبي الثاني وحاول إقناعه بمده بالمعونة العسكرية لاسترجاع ملكه. فلم يجد عنده أذنا صاغية ولم يرد هذا الملك أن يتورط في حرب ربما جلبت له هجوما من الأتراك فرفض معونته وسفه رأيه. فاتجه إذذاك نحو دون سبستيان واستغاث به وصور له الحالة بالمغرب على غير صورتها مدعيا أن له أنصارا كثيرين والتزم أن يعطيه كل الشواطئ ويأخذ هو داخل البلاد فقط بعد الانتصار المزعوم. فلم يكن دون سبستيان ينتظر سوى مثل هذه المصادفة المواتية لآماله والمساعدة على تحقيق أحلامه ليقرر نهائيا القيام بالحملة الصليبية الكبرى التي كانت مستحوذة على لبه. إلا أنه أراد قبل الشروع فيها أن يحاول إقناع خاله فليبي مرة أخرى فوجه له السفراء والرسائل يبين له فيها ما كان سبق أن شرحه له مع زيادة العوامل الجديدة التي ترجع لاستغاثة المسلوخ به. فلم يقبل الملك فليبي الثاني شيئا من ذلك إلا أنه وعده بتوجيه سبعة آلاف من الجنود الإسبان والطليان والألمان لإعانته بدون أن تشارك دولته رسميا في الحملة.

وفي هذه الأثناء بلغت هذه الأخبار إلى مولاي عبد الملك وقد كان ملكا يحب وطنه ولا يسعى في تعريضه لحرب ربما كانت القاضية رغم كونه لم يكن يستهين لا بقوته وشجاعته ولا باستعداد الشعب المغربي للاستماتة في سبيل دينه ووطنه خصوصا وأن الحركة الدينية الجزولية

(1) H. Castonnet des Fosses, Les Portugais au Maroc, Paris 1886, p. 28 :

(2) J. et J. Taraud, le Roi vierge in les œuvres libres, 1950 nº 44 b. 14

العتيدة كانت في جانبه مع رئيسها أبي المحاسن يوسف الفاسي. وكان منذ مبايعته يستعد لمقابلة النصارى والعمل على إبعادهم عن البلاد وتطهيرها من وصمة احتلالهم لها. رغم كل هذا فإنه قام بمحاولة لتثبيت دعائم السلام لا نعرف لها مثيلا في التاريخ، ولو كانت جوائز السلام تمنح في ذلك العصر لاستحق عليها أكبر جائزة من هذا القبيل. وذلك أنه وجه رسالة للملك دون سبستيان أثنى عليها كل المؤرخين الأجانب من الذين لا يكتبون تحت الدوافع الاستعمارية الصليبية يقول له فيها : «إن ما تعتزم من محاربتي في قعر داري ظلم وتعد غير معقولين وأنا لا أضمر لك شرا ولم أقم بشيء ضدك فكيف تبيح لنفسك أن تزيل لي ما هو حقي وتعطيه لشخص آخر مقابل وعود خلابة لا يستطيع أن يفي لك بها مادمت حيا. إنك تأتي لتطردني من مملكتي وإنك بكل ما تملك وبما يوجد في منالك لن تقدر على ذلك. ولا تظن أن الجبن هو الذي يملي علي ما أقوله لك. فإن فعلت فإنك تعرض نفسك للهلاك وإنني مستعد للتفاهم معك راسا لراس في المحل الذي تريده وإنني أفعل كل هذا سعيا في عدم هلاكك المحقق عندي. ولا يملي علي هذه العواطف إلا محبتي للعدل. وأزيد أنني أقبل أن أتحاكم معك لدى محكمتك التي لا تزيل شيئا لأحد ظلما وعدوانا لتعطيه لغيره وأنا أقبل حكمها مسبقا... وإني أشهد الله على ما أقول وأعلم أنك شاب لا تجربة لك وأن لك في حاشيتك نبلاء يشيرون عليك بآراء فاشلة.»(1)

هذا موجز لهذه الرسالة الفذة من نوعها والتي إن دلت على شيء إنما تدل على سمو روح مولاي عبد المالك ودهائه السياسي إذ جعل دون سبستيان أمام مسؤليته من جهة وقدم إنذارا يجعل موقفه قويا في الميدان الدولي فيحجم عن المشاركة في هذه الحرب الصليبية من كانت تسول له نفسه الإقدام على ذلك. وقد كان قدم له من قبل رسالة أخرى ولم يجبه عنها وكذلك لم يقع لهذه الرسالة الثانية أي أثر بل تمادى دون سبستيان في الاستعداد للحرب وتجنيد الجنود وتهييء الأسلحة والعتاد والأقوات والبهائم وكل ما تحتاج إليه حملة يقصد منها القضاء على مملكة عظيمة بل ممالك واسعة ودين متمكن من نفوس المؤمنين به وحضارة بكل معالمها.

ولما تم له كل ما يريد واجتمع له من الجنود المشاة والفرسان عشرات الآلاف تهيأ لعبور البحر نحو المغرب. وهنا ينبغي أن ننبه إلى أن الروايات سواء منها المغربية أو الاوربية تختلف اختلافا كبيرا في عدد الجنود والسفن والمدافع والقتلى والأسرى من البرتغاليين وفي عدد المجاهدين والمدافع والقتلى من المسلمين.

فالأفراني عن ابن القاضي يجعل عدد الجنود البرتغاليين 125.000 مع 300 من أصحاب محمد المسلوخ و200 من المدافع وذكر الأفراني أنه لم يشارك في القتال من هذا العدد سوى مائة ألف وبقي 25.000 منهم في السفن.

وأبو رأس المعسكري يقول ان عدد الجنود البرتغاليين كان 120.000 والروايات المسيحية عن عدد البرتغاليين ومساعديهم تتراوح بين 13.000 و30.000 ومن السفن ما بين 1.000 و13.000 من بينها اثنا عشر مركبا حربيا كبيرا والمدافع ما بين 26 و36.

وكان خروج السفن الصليبية من الاشبونة يوم 24 يونيه سنة 1578، وقصدت أولا «لاكوس»، مرفأ يبعد عن العاصمة بمائتي كيلومتر وأقامت هناك أربعة أيام ثم تحركت نحو قادس حيث وصلت يوم 29 من الشهر المذكور وأقامت بها أسبوعا كاملا، ومن قادس أبحرت قاصدة مدينة طنجة فأرست السفن بمينائها يوم ثامن يوليه. وكان محمد المسلوخ قد مكن البرتغاليين من مدينة أصيلة قبل إبعاده عن الملك. فأمر الملك دون سبستيان

1) هذه الرسالة نشر نص ترجمتها إلى الايطالية في مجموعة «مصادر تاريخ المغرب لهانرى دي كاسترج آمن وثائق فرانسا ص 383 ـ 387

سفنه المشحونة بالعساكر ومعدات الحرب بالتوجه إلى أصيلة وبقي هو يوما بطنجة ثم لحق بهم يوم عاشر يوليه.

ولنرجع إلى مولاي عبد المالك وقد كان في هذه الأثناء بمراكش ينظم أمر مملكته ويستعد لمواجهة الخطر البرتغالي. فإنه بعد أن تيقن أن لا مفر من خوض المعركة مع هؤلاء الظالمين صمم العزم على استنفاذ كل ما يملك من مواهب ومن قوة لكسب النصر. فعمد زيادة على الاستعدادات اللازمة لها الملجوء إلى الدهاء والحيلة الحربية. وقد كان يعرف نفسية الملك البرتغالي الغرير واتصافه بأخلاق الفرسان وتشبثه بمظاهر الشرف والفتوة، وقد كان يعتبر نفسه المثل الأعلى للفارس الشجاع الشريف. فكتب له حسب ما يرويه المؤرخون المغازبة عندما بلغه خبر نزوله بأصيلة يقول له إنه ليس من الشجاعة ولا من روح الفروسية أن تنقض على سكان القرى والمدن التي في طريقك وهم عزل من كل سلاح ولا تنتظر أن يقابلك أمثالك من المحاربين فإن كنت نصرانيا صادقا فتريث ريثما أقصدك. فلما بلغه هذا الكتاب أشار عليه رجاله ومحمد المسلوخ أن يضرب به عرض الحائط وأنه ينطوي على مكيدة والأوْلى أن يتوجه حينا إلى احتلال العرائش ثم القصر الكبير. ولكنه أبى بشمم أن يعرض شرف سمعته إلى هذه الوصمة الشنعاء فلم يتحرك من أصيلة وقضي بها 19 يوما.

إن خبر هذه الرسالة لا تتعرض له الروايات المسيحية وإنما الذي أجمع عليه مؤرخوهم أن دون سبستيان كان مترددا بين التوجه على طريق البحر لاحتلال العرائش وقصدها على طريق البر. فعقد بأصيلة مجلسا حربيا درست فيه الطريقتان وكان الأكثرون يؤيدون وجهة النظر الأولى ومن بينهم المسلوخ، إلا أن الملك ارتأى أن تكون المعركة برية حتي يمكنه أن يخوض غمارها ويظهر شجاعته، وأصر على رأيه فتعين إذذاك الخروج إلى مواجهة الجيوش المغربية على طريق البر. وهنا تبقى نقطة استفهام عند المؤرخين الغربيين وهي لماذا تأخر دون سبستيان كل هذه المدة بأصيلة ولم يقصد في الحين القصر الكبير. وإن الرواية المغربية تحل هذا الغموض وتجيب عن هذا السؤال. فإن دون سبستيان كان يرى أن شرفه لا يبيح له أن يستولي على بلاد عدوه بدون قتال وهو من هو شهامة وعلو نفس وشمما، ولعل دون سبستيان كتم خبر الرسالة عن خواصه حتي لا يسفهوا رأيه. وهكذا نجحت خطة مولاي عبد المالك في تيسير الوقت الكافي لإتمام استعداداته وحشد الجنود والمقاتلة من كل أنحاء المغرب. وقد كان لرجال الطريقة الجزولية من أتباع الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي وهم أغلبية الشعب المغربي إذذاك دور مهم إذ قام زعماؤهم استجابة لدعوة شيخهم بدعاية واسعة النطاق للتطوع والجهاد في سبيل الله. واجتمع لمولاي عبد المالك نحو المائة ألف من المقاتلين فيهم الجنود المنظمة وفيهم المتطوعة. ومن بينهم أكثر من ثلاثين ألفا من الفرسان وإن كانت بعض الروايات المسيحية تبلغ عددهم إلى الستين ألفا.

وأخذ هذا الجيش العرمرم يطوي المراحل وهو يزيد كثرة بما ينضم إليه من المتطوعة أثناء الطريق، وقد أمر مولاي عبد المالك أخاه وخليفته على فاس أحمد المنصور أن يسبقه إلى القصر الكبير بجيوشه من رماة أهل فاس وكانوا من أشجع عناصر الجيش المغربي. وقد كانت مدينة القصر الكبير المركز الرئيسي في المغرب للحركة الجزولية وبها كان يسكن الشيخ أبو المحاسن، ونظرا كذلك لقربها من المراكز البرتغالية اتخذها مولاي عبد المالك مقرا للقيادة العليا لتسيير هذه الحرب.

ولما وصل مولاي عبد المالك إلى نواحي القصر الكبير واجتمع مع رؤساء جيشه وأعيان دولته وزعماء الجزولية وعلى رأسهم الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي وتدارسوا الحالة واطلعوا على أخبار النصارى وقد كان له عين في جيش دون سبستيان انضم إلى الحملة في مرفأ لاكوس وكان يوجه له التقارير السرية، بعد كل هذا فكر الملك العبقري في حيلة ثانية يحقق بها النصر فكتب حسب الرواية المغربية رسالة لدون سبستيان يقول له فيها : «إنني

قطعت للمجيء إليك ست عشرة مرحلة فهلا قطعت أنت مرحلة واحدة لملاقاتي». وهنا كذلك نرى هذه النقطة موضوع نقاش بين الملك وحاشيته حسب المؤرخين الأوربيين. فالملك كان يرى أن يخرج إلى محاربة المسلمين في القصر الكبير، وحاشيته وبالخصوص محمد المسلوخ، كانوا يشيرون بالبقاء في أصيلة حتى تصل الجيوش المغربية. ولكنه مرة أخرى أصر على رأيه ووقع في الشبكة التي نصبها له دهاء مولاي عبد المالك. وذلك أن الغاية التي كان يتوخاها الملك السعدي هي أن يجره إلى بسيط ناحية القصر في محل تكثر به الأنهار إذ وادي لكوس الذي ينصب في العرائش يمده من الضفة اليمنى وادي المخازن وهذا الأخير يمده من الضفة اليسرى وادي وارور. وهكذا إذا قدر الله النصر للمسلمين وحاول الأعداء الفرار لا يجدون أمامهم مخرجا وحتى إذا فرضنا أنهم استطاعوا أن يتجاوزوا كل هذه الصعاب فإنهم يجدون البحر من ناحية العرائش ولا يمكن أن ينقذهم مدد بخلاف لو أنهم بقوا في أصيلة ووقع انهزامهم فإن السفن الراسية بها كانت مستعدة لنقلهم فيسلموا بالأقل من الأسر. وهذا ما كان يشرحه لدون سبستيان مستشاروه ولكن شوقه للحرب الحقيقية في متسع حيث يمكنه أن يجول ويصول مع نعرته الشرفية الصبيانية جعلته يرفض الاستماع إلى نصائحهم. وأمر يوم الثلاثاء 29 يوليه بالإقلاع من أصيلة قاصدا القصر الكبير. وهكذا تم لمولاي عبد المالك مرة ثانية ما أراد. ونحن نراه حسب هذه الروايات يسير هذه الحرب كيف يشاء وما ذاك إلا لما خصه الله به من مواهب مع تجاربه الحربية السابقة في ميادين متعددة بالمغرب وخارجه ومع ما كان يقدم له المشايخ من نصائح وإرشادات.

وعسكر الجيش في اليوم الأول من خروجه بوادي الرحي وتسميه المصادر الأوروبية أي الأرحية. وفي الغد أقلع ونزل بالمنارة حيث أقام يومين وقد لحق به هناك القبطان ألدانا الإسباني ومعه خمسمائة من القشتاليين.

ويوم الجمعة فاتح غشت عسكر الجيش في ثلاثاء ريسانة. ويوم السبت ثاني غشت نزل بمحل يدعى برقين على كدى وفي سفح هضاب هناك من جهة الضفة اليمنى لوادي المخازن. ومن أعالي تلك الهضاب شاهد البرتغاليون طلائع جيش المسلمين متجهة نحوهم في بسائط القصر الكبير ما بين وادي لكوس ووادي وارور. فأمر دون سبستيان جيشه بقطع وادي المخازن في اليوم الموالي والتخييم على ضفته اليسرى في مثلث تتكون زاويته الغربية من التقاء نهر وارور ووادي المخازن.

وقد وصلت كذلك الجيوش المغربية إلى هذا المثلث ودقت الخيام واستعد الفريقان لخوض الحرب في صبيحة يوم الإثنين متم جمادى الثانية سنة 986 أي 4 غشت سنة 1578.

هذا اليوم التاريخي الأغر الذي أخلص فيه المغاربة لدينهم ولوطنهم ولملكهم المجاهد العظيم مولاي عبد المالك وهزموا فيه الجيش البرتغالي العتيد الذي كان دوخ العالم شرقا وغربا وأسس أمبراطورية كانت قبل أمبراطورية بريطانيا العظمى لا تغرب الشمس عن علمها. هذا اليوم الذي شبهه المؤرخون بيوم غزوة بدر لأنه أوقف الطغيان الصليبي وقضي على أحلام التوسع المسيحي كما قضت غزوة بدر على الشرك والمشركين وحققت انتصار كلمة الحق ودين الرحمة والأخوة والكرامة الإنسانية، في هذا اليوم صرع مع دون سبستيان الظلم والتعدي والتعصب المقيت كما صرعت مع محمد المسلوخ الخيانة والرذالة وتضحية مصالح الوطن والمواطنين في سبيل الأطماع الشخصية والتعلق بأسباب الدنيا الفانية. وإن الاحتفال بهذا اليوم ليس عداء لأحد ولا هو تعبير عن وطنية ضيقة وإنما هو تخليد لذكرى جهاد شريف ونضال عن حق وتمجيد لأبطال حققوا لبلادهم بشجاعتهم وإيمانهم استمرار وجودها وعزتها وكرامتها.

محمد الفاسي